

من ينقذ الشيعة (غير سعد الحريري)؟

أسعد ابو خليك*

تعاني حركة 14 آذار من مشكلة شيعية، وتحاول ما استطاعت أن تستنبط «تباراً» شيعياً حريرياً يحظى ببعض «الصدقية» الطائفية. فرفيق الحريري استطاع في سنوات حكمه أن يحقق كسباً كبيراً في اجتذاب الرأي العام السنّي نحوه، وإن كان هذا الإستقطاب المذهبي قد تفاقم بعد اغتياله، ونجح في استمالة الزعيم الدرزي الأبرز، بالإضافة إلى حصوله على تأييد بعض الفعاليات المسيحية. كانت وسائل الاستمالة شبيهة على الأرجح بوسائل استمالة جاك شبراك من قبل أيمن الحريري، الذي يستضيف شبراك في بيته (يا للصداقة، وهي صداقة تذكر بصداقة نبيلة بين صدام حسين في عزه وشبراك، حتى إن رئيس تشريفات صدام بروي في كتابه أن زوجة شبراك كانت تصاب بالذهول ويعرفان الجميل عندما كانت تتلقى دفعة جديدة من هدايا صدام الدورية).

ولكن يجب الإقرار بمهارة رفيق الحريري في هذا المجال: فللعبة الدبلوماسيّة الطائفية أصول وقوانين لا يجيدها إلا من امتهنها في العمل السياسي اللبناني. لكن رفيق الحريري لم يكن كامل السيطرة على الرأي العام السنّي في حياته على الرغم من سعي حثيث (وصناديق الزيت والسردين)، وإن كان فاق كل رؤساء الوزراء بعد الاستقلال (الاستقلال عن فرنسا لم يعد استقلالاً، إذ إن وليد جنبلاط، بعدما أزيلت «الغشاوة» عن عينيه في عملية جراحية معقدة تطلبت حضور اختصاصي الغشاوة غطاس خوري، أفنى بان الاستقلال هو فقط استقلال عن سوريا وطالب بالتلويح بالعلم الفرنسي في عقر داره) في مهارته في تاجيح الحساسيات الطائفية السنية، وفي استغلال الدين بمناسبة وغير مناسبة كما فعل ضد قانون الزواج المدني (قد يكون الياس الهراوي المغلوب على أمره أكثر الرؤساء علمانية في تاريخ لبنان، وإن كان محكوماً باعتبارات موازين الترويكاً آنذاك).والحريري لم يكن سلساً في عملية صعوده السياسي، إذ إنسه اعتمد عبر السنوات على ثلاثة عناصر أساسية لبناء زعامته السياسية (والعناصر الثلاثة هي نفسها آفات النظام السياسي اللبناني):

1) التدخل الخارجي، السوري أساساً، وإن تغيّر في سنتيه الأخيرتين عندما بدأ بالإعداد للقرار 1599.

2) التاجيح المذهبي الحاد، وخصوصاً في الانتخابات

النيابية.

3) المال السياسي غير المحدود. ولا شك في أن سعد الحريري اعتمد على العناصر نفسها (مع استبدال أدوار التدخل الخارجي) في بناء أكثريته النيابية، وإن كان ذهب في التاجيح الطائفي والمذهبي وفي إغداق المال (الذي «أنعم به» الله على العائلة، وفقاً لوصف رفيق الحريري . أي إنه «مال إلهي»)، وإن كانت ابواق العائلة تسخر من هذا الوصف هذه الأيام) أبعد بكثير من والده، وخصوصاً في انتخابات الشمال.

والطائفة الشيعية، على خلاف الطائفة الدرزية وعلى خطى الطائفة المارونية، تخلصت من زعامات الإقطاع الذين قضوا سنني الحرب منبذون في المنافي أو في المناطق اللبنانية البعيدة عن أماكن الوجود الشيعي. لكن بعض بقايا العائلات الإقطاعية الشيعية استطاعت أن تنعاش مع الحالة السياسية المستجدة عبر الانضواء في صفوف كتلة حركة أمل، وإن كان دورها هامشياً.

ونشكل الواقع الشيعي معضلة لرفيق الحريري وإن كانت

حملاته المذهبية كفيلا بمنع اجتذاب الشيعة وراء قيادته، بالإضافة الى عوامل أخرى تتعلق بسياساته الإنمائية، وبموقفه المعارض للمقاومة منذ البداية، على الرغم من مزاعم بكائي عائلة الحريري المحترفين.

والوضع الشيعي اليوم (والتحليل الطائفي مبرّر في لبنان نتيجة ضعف الهوية الخارجة عن الطائفة) معقود اللواء لحزب الله (ولحركة أمل بدرجة أقل). والمفارقة أنه كلما غرقت قيادة السلالة الحاكمة في عملية التاجيح الطائفي، صعّبت من إمكان نجاحها في تحقيق اختراقات في الطائفة الشيعية والمارونية (وكلام المطران بشارة الراعي حول «أسلمة» لبنان يذكر بكلام تردّد من قبل في الأوساط المسيحية إبان صعود قيادة الحريري، برعاية تلك الوصاية البيغضة نفسها . لكن قبل أن تنقشع الرؤية). وتظهر استطلاعات الرأي في لبنان أن الطائفة الشيعية والطائفة الدرزية هما أكثر الطوائف انسجاماً وتماسكاً في الرأي السياسي، وهذا ما يعرّز من واقع التماسك الطائفي الذي يسم كل الطوائف في لبنان حيث يشكل الانتماء الطائفي عاملاً مقررراً لصنع الموقف السياسي، وإن كانت الطوائف السياسية متقلبة (مثل تقلب زعاماتها التي لا تعتنق من ثوابت إلا ما يديم تلك الزعامات). والطائفة السنّية كانت تتمتع بالتنوع في الوجهات السياسية قبل بروز ظاهرة الحريري التي لا تسمح بتنافس سياسي داخل الطائفة. أما الخلاف السياسي المسيحي، أو الثنائية، فهي كانت عنصر شقاق وفرقة في تاريخ الحرب الأهلية اللبنانية.

ورغبة في تشكيل مشروعية سياسية متعددة الطوائف، عمل فريق السلالة الحاكمة على جذب فريق شيعي معارض لحزب الله ومنضو (ذليلاً كما هي الحال مع كل حلفاء آل الحريري) في إطار 14 آذار. طبعاً، هناك عدد من الشيعة في 14 آذار، من غازي يوسف (الذي قدم اعتذارات محمومة للسيد محمد حسين فضل الله بسبب تقديمه درع الأرز لجون بولتون)...إلى باسم السبع. ثم هناك مفتي صور الذي لا يهدأ، والذي له اليوم في كل أعراس 14 آذار وأتراحها قرص، وهو يظهر حتى في المناسبات الاجتماعية لفريق 14 آذار، مثل توقيع كتاب مي الشدياق. والرجل تنقل بين حزب الله وحركة أمل قبل أن يكتشف «حب الحياة» في فريق 14 آذار.

لكن مبادرة باسم السبع إلى تأليف فريق شيعي حريري ليست جديدة، إذ إن فريق السلالة الحاكمة سارع بعد اغتيال الحريري الى إنشاء فريق شيعي تحت قيادة الشيخ محمد حسن الأمين والمعلق نصير الأسعد (واحد من كثيرين في منظمة العمل الشيعوي الذين انتقلوا من الشيوعية الى الحريرية . عن قناعة مبدئية طبعاً). لكن التجربة تلك لم يُكتب لها النجاح. إذ إن الأمين اكتشف على الهواء في برنامج «خليك (مع الحريري) بالبيت» أنه يُستدرج إلى اتخاذ مواقف ضد المقاومة، فأهان الضيف، وأنهى التجربة تلك. وهو عقد اجتماعاً تنسيقياً أخيراً مع مسؤول حزب الله في الجنوب. كان يمكن نصير الأسعد أن يستمر في التجربة وحده لو اكتشفت فيه الأكرتية الشعبية كاريزماً أو شيئاً من السحر الجماهيري (ويمكك من هذا السحر وبوفرة، مصطفى علوش على سبيل المثال).

ثم اخترعت مؤسسة الحريري السياسية الشيخ محمد الحجاج حسن الذي يقود تياره الشيعي من... النبعة - لكن قد يكون الرجل لم يسمع بعد بتهجير الشيعة من النبعة.

وهو يعد، باستمرار، بمفاجآت وحفلات قسم يمين، ولكنه دائماً ينسى وعوده. لعل رجمه من قبل أهل منطقته عثر خطأ، ما دفعه إلى اعتزال العمل السياسي. لكن من المضحك أن الفريق الحاكم يظن أن تنصيبه لفئة شيعية على الشيعة سيحظى بالمطلوب، مع أن العكس هو الصحيح. ومحاولات الفريق الحاكم لتنصيب بدائل من حزب الله وأمل تبدو مضحكة أحياناً، وخصوصاً عندما تعمد وسائل الإعلام الحريري والقواتي الي إبراز أحمد الأسعد أو مني فياض وكان هذا الإبراز المصطنع كفيل بالتاثير في الرأي العام الشيعي (وهذه المحاولات، مع مشابهة أيضاً في الفكر العنصري الموحّ، تذكر بأسلوب اليمين الأميركي في إبراز أصوات سوداء يمينية، مع أنها بعيدة كل البعد عن رأي وتوجّهات السود في البلاد). وأصرّت وسائل الإعلام

أنها ستعيد

قد يأتي يوم يطالب فيه الفريق الحاكم بجدار فصل عنصري حتى تبقى الضاحية الجنوبية بعيدة عمّن يحب الحياة في لبنان

يذكر ممثّلو عائلات الإقطاع السياسي بورثة السلالات الملكية المنتشرة في المنافي، فهم حاقدون على الزمن ويكونون ضغينة لتقدّم أمر الشعوب

الحريرية أثناء حرب إسرائيل على لبنان على إعطاء منبر وافر لأصوات شيعية معارضة للمقاومة. لكن لا يبدو أن الأسلوب قد نجح، ولا دليل إلى اليوم أن حناجر جماهير الشيعة تهتف بحياة نصير الأسعد أو أحمد الأسعد أو علي صبري حمادة (الذي أنشأ ميليشيا نسور البقاع أثناء الحرب الأهلية لكن مصيرها كان شبيهاً بمصير «لواء تنورين»..هل من يذكر؟).

ثم طلع علينا أخيراً باسم السبع بمبادرة حريرية جديدة، ولم تكن نعلم أن السبع موجود في لبنان، فأهلاً به في وطنه الثاني، لبنان (طائرة الحريري الخاصة هي الوطن الأول في هذه الحالة). ويذكر لباسم السبع أنه رافق سعد الحريري في جولاته المهمة أثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان، بما فيها رحلة إلى قبرص طلب فيها الحريري، وفقاً لجريدة المستقبل آنذاك، مساعدة الرئيس القبرصي لوقف النار في لبنان.

وتدخل تلك الجولات في إطار السياسة الدفاعية للبنان التي ينتهجها فريق 14 آذار بديلاً عن المقاومة. فنعم الاستراتيجية الدفاعية في هذه الحالة.

والطريف في هذه المبادرة الجديدة من النائب السبع أنها جمعت كل من له خلاف مع حزب الله أو أمل، ولأسباب تبدو متناقضة، على أن يكون شيعياً (على طريقة الطائفية المعادية للطائفية).

فهناك في هذا التيار الجديد والعفوي (إذ إنه التقى هكذا

عفواً من دون ترتيب حريري مسبق) فريق ورثة الإقطاع الشيعي من عائلات حمادة والأسعد والخليل. ويستحق النائب السبع (الذي، للامانة، أفرط في البلاغة في مديح النظام السوري عندما شغل منصب وزير الإعلام في عز عهد الوصاية) الثناء لأنه قدر على جمع عائلات متنازعة منذ عقود وإن كانت متصاهرة، وإن كنا نخمنه أن ينجح في جمع كامل الأسعد مع ابنه. من يدرى؟ قد ينجح في المبادرة الشيعية الحريرية المقبلة.

وممثّلو عائلات الإقطاع السياسي يذكّرون بورثة السلالات الملكية المنتشرة في المنافي (من عرب ومن غربيين). فهم حاقدون على تقدّم الزمن ويكونون ضغينة واضحة لتقدّم أمر الشعوب. من هنا، نفهم كلام علي صبري حمادة ووصفه لأهل الضاحية بـ«الغوغاء» (وهو الوصف نفسه الذي أطلقه صدام حسين على من عارضه في العراق). فالسيدّ حمادة، مثله مثل أبناء عائلات الإقطاع، ينشأون ويتربّون على فكرة التسلم الأتوماتيكي للزعامة. لا يتوقع الإقطاع تغيّر أهواء الناس، ورفضها للإقطاع. لهذا، كان أحمد الأسعد (الجذ) يقول إنه لا حاجة إلى المدارس في الجنوب طالما ابنه النجب كامل يتلقى علومه.

لكن اللقاء المذكور (الذي اختار عنوان دعم الجيش، وكان الموضوع هو مدار اختلاف بين اللبنانيين في الوقت الذي يزايد فيه الجميع على بعضهم في لبنان في دعمهم للجيش، حتى إن قيادة منظمة التحرير في لبنان هي الأخرى تهتل للجيش في دكّه مخيم نهر البارد) ضمّ أيضاً جمعاً من أفراد كانوا يعرفون أنفسهم، كما ظننا، بأنهم «علمانيون» أو ليبراليون. لكن المصلحة اقتضت أن يتأطروا داخل جمعية طائفية، وذلك لمحاربة حزب الله الذي يقولون عنه إنه طايفي (هل هناك زعيم واحد أو حزب واحد غير طايفي في لبنان، باستثناء الشيخ محمد علي الجوزو الذي توقف عن إرشاد خلية حمد، وتوقف عن المطالبة بالحكم الإسلامي في لبنان وعن إهانة المسيحيين - الغشاوة تلك أيضاً أزيلت عن عينيه كما يبدو)، أي أن هؤلاء الليبراليين ارتأوا محاربة طائفة حزب الله بطائفة أخرى، حضارية طبعاً. فكل فريق 14 آذار هو حضاري وراقٍ - إيّاك أن تنسى.

لم يخرج علي صبري حمادي عن البروتوكول المرسوم. فوصفه لأهل الضاحية (الذين قالت عنهم جريدة النهار في منتصف السبعينيات بأنهم يتكاثرون «كالفئران») هو من صلب عقيدة أهل 14 آذار الذين (واللواتي حتى لا ننسى غنوة جلول ونائلة معوض) يعتبرون عدم لحاق الشيعة بشعاراتهم المحنّة للحياة دليل تخلف ومهجية (عبر عنها بصراحة بعض قادة الحركة المذكورة).

لكن الفريق الليبرالي واضح في التعبير عن أسباب اختلافه مع حزب الله، لكنه أقل وضوحاً في شرح أسباب تلافيه مع فريق الحريري. هل أصبح وليد جنبلاط وسعد الحريري وسمير ججعج ليبراليين علمانيين من دون أن ندري؟

المشكلة طبعاً تكمن في قوقعة الطوائف. والتحريض الطائفي والمذهبي يفعل فعله، ويؤدي الى ترسيخ الحدود النفسية وحتى الجغرافية بين الطوائف. وقد يأتي يوم يطالب فيه الفريق الحاكم بجدار فصل عنصري حتى تبقى الضاحية الجنوبية بعيدة عمّن يحب الحياة في لبنان، وعمّن يعتبر مقاومة الاحتلال الإسرائيلي عملاً غير حضاري.

* أستاذ العلوم السياسية في جامعة كاليفورنيا (موقعه على الإنترنت: www.angryarab.blogspot.com)

www.al-akhhbar.com 5963 /113 صرّ، مكتبه الشّعباء 06 /427713 08 مكتبه الصّام: 08 /540200 مكتبه الجنوي: 07 /767010 التّوريم شركة الّوائل: 03] 828381 - [01] 666314 - 15

لقد ضاعت هيبة أميركا على تخوم بغداد، وفي براري العراق وبساتينها، وضياح الهيبة أول علامات انهيار الكوني، ومع ضياح هيبة أميركا ستندرج أميركا كصخرة حطت من عل.

شيء آخر حدث، في مكان آخر من شرق أوسطهم المرتجى، لا يقل أهمية وتأثيراً عما حدث على أديم وادي الرافدين. يدهم الضاربة القابضة على ضفاف المتوسط، الدولية التي خاضت حروبها مع الأنظمة من دون أن تخسر حرباً واحدة، حتى ما سموه «العبور» عادت فيه إسرائيل لتعبر هي وتصيح في الكيلومتر 101، على بعد مرمى قذيفة مدفع من ضواحي قاهرة المعز. كان لا بد من ضربة تفدق قوى رفض الإذعان توازنها، وليس ثمة ضربة قاصمة كضرب المقاومة اللبنانية التي أرخت لزمان الانكسارات والهزائم الصهيونية. حرب جنوب لبنان كانت ضرورة أميركية وإسرائيلية، تتضمن من جملة ما تتضمنه رد الاعتبار لأميركا المهزومة والمأزومة في العراق، وإسرائيل المهزومة والمجلوة عن جنوب لبنان كرهاً وقسراً تحت ثقل ضربات المقاومة اللبنانية الباسلة. وهنا أيضاً أساءوا التقدير، لقد حسبوا أن جيش إسرائيل الذي لا يُقهر، مع الدعم الأميركي، وأستطيع القول دونما تردد، والدعم العربي، والأجر المحلي داخل لبنان، سيوفر لإسرائيل نصراً سهلاً يوقف انهيارات المشروع برمته، ويكون نقطة تحوّل تاريخية لترتيب الأوضاع في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق دفعة واحدة، لذا ليس

كاوبوية ترى أن ما هو أخلاقي شأن خاص بالمتحدّين أمثالهم، أما أولئك المتوحشون، المتعضون، المتخلفون، المعادون للديموقراطية والثقافة الأميركية، فهم صنو الهنود الحمر، ينبغي إبادتهم، وتذجين من يبقى منهم، ولا باس في أن يصحح هذا الباقي مجرد فولكلور ليس إلا، وفي أحسن الأحوال فرجة.

البشاعة كانت جوهر سياسة الرعب والصدمة التي طبّقوها في العراق، وعلى بغداد ومحيطها تحديداً، ثم كانت المرحلة الثانية حرق بغداد، وإنهاء الدولة، وكل ما حدث بعد هذا تحصيل حاصل. هل كان في تصور الأميركيين أن سياسة الرعب والصدمة سوف لن تفعل فعلها مع شعب منهوك ومُتعب، ومُبتلى؟ أغلب الظن أنه لم يكن في واربهم هذا، والدليل أن كبيرهم أعلن متبجحاً أن المهمة نفّذت، واحتفل بالانتصار مرّهواً. وحق له أن يزهو ويتبجّج، لو أنه لم يسيئ التقدير. فالعراق هو الجائزة الكبرى حقاً، وهو المنطلق لبسط هيمنة الوجدانية الأميركية في قلب العالم الذي سموه مبكراً الشرق الأوسط الجديد.

هل جرت الأمور وفق مشيئة اليانكي؟ المستنقع الأميركي في العراق يجب عن هذا السؤال لقد تحوّل الرعب والصدمة من رعب وصدمة للعراقيين المنهوكين المتعبين، المبتلين بكل شأن، طوال سنوات جفاف سابقة من الحصار والذلل والإرهاب، إلى رعب وصدمة للجنود الأميركيين المحترفين، المتنعّمين المرؤدين باحث ما أنتجتّه إنجازات الآلة الصناعية الحربية الأميركية.

صباح عليّ الشاهر*

العراق، السودان، فلسطين، لبنان، ساحات لتطبيق النهج الذي يوكل مهمة تدميرنا لنا. سمّها التدمير الذاتي، أو ما شئت، المهم أن التخبط الذي كان إلى آمد قريب محض افتراض لا يلامس الواقع أضحي كما يبدو واقعا ملموسا ومعاشا، بكل هوله ولاعقلايته، وسخفه وعبيثته. في البدء حسب الأميركيون أنهم بالاعتماد على نفوقهم العسكري الساحق، وقدراتهم التكنولوجية

الخارقة، وعلى جماعات من العملاء مدربين بشكل جيد، سيتمكنون من تطبيق المخطط الذي رسموه بدقة، وسعوا إليه منذ عقود. ما كان ثمة ما هو مخفيّ، إذ لم تعد السرية ضرورية بعد استفراد الأميركيين بالعالم، بل حسب

الإمبرياليون الجدد أن الجهر بالمخطط وإشهار المخططات والإمعان بالصف هي تعبير عن الهيممة المطلقة على العالم. هذا الاستهزاء واستصغار الآخرين كان نهجاً بوشيا بامتياز، وتدشين لهمجية كاوبوية، حسب البعض أنها زالت منذ انتهاء الاستعمار القديم. ولكن بوش ورهطه يحيون كاوبوية معاصرة، لا تتوانى عن اجتراز فروة الرأس بحدّ السكين.

يُريدونها بأيدينا لا بأيدي غيرنا!

«كاوبوية» بوش ترى أنّ ما هو أخلاقِي شأن خاص بالمتحدّين، أما أولئك المتخلفون، المعادون للثقافة الأميركية، فهم صنو الهنود الحمر

www.al-akhhbar.com 5963 /113 صرّ، مكتبه الشّعباء 06 /427713 08 مكتبه الصّام: 08 /540200 مكتبه الجنوي: 07 /767010 التّوريم شركة الّوائل: 03] 828381 - [01] 666314 - 15